العراقية
المجلات الاكاديمية العلمية
IRAQI Academic Scientific Journals
Al-Itqan Journal of Humanities
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/575
ISSN: 3105-1073 (OnIne)
المجلة معتمدة بالترقيات العلمية حسب كتاب وزارة التعليم العراقية (46404-1410) في 2026/4/27

سؤال النهضة في الرواية العربية

الباحث الأول: م. د. أحمد محمد هاشم

جامعة البصرة للنفط والغاز/ كلية الإدارة الصناعية للنفط والغاز

الباحث الثاني: م. د. عذراء علي نعمة

جامعة البصرة/ كلية الآداب

The Question of Renaissance in the Arabic Novel

Researcher: Dr. Ahmed Mohammed Hashim
University of Basrah for Oil and Gas / College of Industrial Management for Oil and Gas
Second Researcher: Dr. Adhraa Ali Naama
University of Basrah / College of Arts
ahmed.mohamed@buog.edu.iq
athraa.ali@uobasrah.edu.iq

الملخص

ينطلق البحث من منظور تاريخي من أجل الوقوف على تحدّيات نشأة الرواية العربية، ووضعها في سياقها الثقافي الذي ظهرت فيه، وهذا السياق هو البيئة التي أثّرت في لحظة كتابة الرواية، فالتحوّل السياسي في معظم الدول العربية كان موجّها أساسيا للبُعد الاجتماعي والبُعد الاقتصادي والبُعد الديني والبُعد الثقافي، وعلى وفق هذه المعطيات التي أحاطت بالخطاب الروائي؛ فلا بُدّ من حقل بيني لدراسة الرواية العربية، والحقل الذي يُناسب هذه الدراسة هو (الدراسات الثقافية)، التي سيعتمدها البحث، من أجل الكشف عن الأسباب التي جعلت اجتماع هذه الأبعاد في الرواية، فضلا عن كشف مناسبة تكريس أسئلة النهضة – التي تُمثّل القيم الإنسانية التي دعا إليها روّاد النهضة العربية في خطبهم ومؤلّفاتهم – في أوائل روايات البلدان العربية، الأمر الذي جعل البحث يركّز على إيجاد العلاقة بين الجهود التي بُذِلت للإصلاح النهضوي، وتمثّلاتها في المروية الروائية التي كان ظهورها تتويجا لمحاولة ذلك الإصلاح، إذ اعتمد البحث على مجموعة من الروايات العربية، على أنّها نماذج مُختارة من روايات البلدان العربية، لتكون موضوعا له على وفق حقل الدراسات الثقافية.الكلمات المفتاحية: سؤال النهضة، سؤال الرواية العربية، تأسيس الرواية.

Abstract

This research begins from a historical perspective to examine the challenges of the emergence of the Arabic novel and to place it within its cultural context. This context is the environment that influenced the moment of writing the novel. The political transformation in most Arab countries was a primary driver of the social, economic, religious, and cultural dimensions. In light of these factors surrounding the narrative discourse, an interdisciplinary field is necessary for studying the Arabic novel. This field is (cultural studies), which this research will adopt in order to uncover the reasons that led to the convergence of these dimensions in the novel, In addition to revealing the occasion of dedicating the questions of the Renaissance - which represent the human values called for by the pioneers of the Arab Renaissance in their speeches and writings - in the early Arab novels, which made the research focus on finding the relationship between the Renaissance reform efforts and their representations in the narrative novel, whose emergence was the culmination of that reform attempt. The research relied on ten novels, as selected models from the novels of the Arab countries, to be its subject according to the field of cultural studies.

Keywords: The question of the Renaissance, the question of the Arabic novel, the establishment of the novel.

المقدمة

يحاول البحث أن يطرح سؤالا مركزيّا على السرديّة الروائية التي ظهرت في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، إذ يُمثّل هذا السؤال إشكالية البحث، وهو: هل الرواية العربية تضمّنت أسئلة النهضة؟ وإذا كانت كذلك؛ ما هي هذه الأسئلة؟ وما الكيفيّة التي من خلالها تمّ تقدّيمها إلى القارئ العربي؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة، يمكن الاستعانة بالسياقات الثقافيّة التي أحاطت بلحظة كتابة الرواية العربية، فضلا عن أمعان النظر بالظروف التي حفّت بزمن كتابتها، للوصول إلى تصوّر يُضيء لهذه القراءة شيئا من العتمة التي تُلازم الرواية العربية في مرحلتها الأولى، بفعل عامل الزمن، الذي يُمثّل فجوة كبيرة، إذ يعتمد هذا البحث على حقل الدراسات الثقافية في مهمّة الكشف عن سؤال النهضة، لأنّ الدراسات الثقافية حقل بيني هدفه إنساني، وله بُعد أخلاقي، وهذا الحقل يُفيد من كلّ الحقول المعرفية، من أجل الكشف عن مواضع هيمنة السياقات الثقافية المؤثّرة، وهذا ما جعل البحث أن يتخذ من حقل الدراسات الثقافية وسيلة وعي لسبر أغوار الرواية العربية، لأهميّتها ولأهميّة القيم الإنسانية التي احتوتها لعقود من الزمن، دون تفعيلها في واقع المجتمع العربي.

مدخل: بواكير الرواية العربية

ظهرت الرواية العربية من بين أنواع أدبية جديدة في القرن التاسع عشر، إذ بدأت مبادرات الأدباء العرب تظهر بعد النصف الأوّل من هذا القرن، وتمثّل امتدادا للأجناس الأدبية القديمة تارة؛ وأنواعا أدبية غربية جديدة تارة أخرى، لأنّ بعض الأدباء قد تعرّفوا على الرواية، والمسرحية، والقصّة القصيرة، في العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر، وبدأت أعمالهم الأدبية تظهر في العقد الرابع تحديدا، كما في المقامة التي كتبها الطهطاوي (١٨٧٦م)، ومسرحيّة "البخيل" التي كتبها ومثّلها مارون النقّاش (١٨٤٨م)، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد ظهرت الرواية العربية، وأخذت حيّزا من بين الأنواع الأدبية، لأنّ الروائي يحاول "إيقاظ الوعي الاجتماعي كي ينال المجتمع حقوقه" (هلال، ١٩٩٧: ٥٣٤) ، فضلا عن الأهميّة الأدبية التي تحظى بها الرواية، لأنّها "في اتجاه الحضارة الجديدة أداة للوعي المحلّي والفردي أو الاجتماعي" (ألبيريس، ١٩٨٢: ٣٨٩)، وحضورها الذي جعلها تتقدّم على الشعر، ومن خلال الفرق بين شعرية القلب ونثرية العلاقات الاجتماعية تظهر خلاصة العلاقة بين الذات والعالم، فشعرية القلب تعني كلّ ما هو أصيل مرتبط بالشعر، ويعبّر عن وحدة الروح وانسجامها، في الشعر تكون علاقة الذات (الروح) بالعالم علاقة انسجام وتناغم، وهذا ما يحقق وحدتها، بينما تعني نثرية العلاقات الاجتماعية كلّ ما يعود إلى النثر ويعبّر عن تصدّع الروح وسقوطها وتوترها، في النثر تكون علاقة الذات بالعالم علاقة توتّر وصراع، وهذا ما يسبب قطيعة بين الذات والعالم (ينظر: بوعزة، ٢٠١٠: ١٥)، فتوتّر علاقة الذات الواعية مع عالمها هو نتيجة الرفض وتوجيه النقد لظواهر الانحطاط التي تؤدّي إلى الانحدار، وظهور الرواية منطلق للتحوّل في التعبير عن قلق الحاضر وطموح المستقبل في هذه الدولة الناشئة، فقد اهتمّ المجتمع العربي عبر تاريخه بالشعر دون النثر، لكنّ في العصر الحديث كان اهتمام الأدباء منصبّا على الرواية، وما اشتمل عليه من تداعيات للنهضة العربية، وهذا ما تحقق في كثير من مشاريع المفكّرين العرب، روّاد النهضة العربية، الذين أسهموا بشكل كبير في الفكر العربي الحديث، من خلال أطروحاتهم للفكر التنويري عبر مشاريعهم النقدية، ولأنّ الرواية لها قابلية الاستجابة للتعبير عن هموم المجتمع بأشكالها كلّها؛ فقد كتب هؤلاء روّاد الرواية، من أجل طرح أسئلة عصرهم بشكل مختلف، لأنّهم ادركوا سعة الرواية واستجابتها لقضايا المجتمع، التي عجزت مؤلّفاتهم العلمية عن التصريح بها بشكل مباشر، فلجؤوا إلى الرواية لإكمال مشاريعهم الرافضة للواقع، إذ لم يكونوا روائيين بالمعنى الدقيق والحصري للمصطلح؛ بقدر ما كانوا مفكّرين يبحثون عن أساليب جديدة يمرّرون فيها القضايا الكبرى للأمّة بمأمن عن الصدام مع السلطة، وفي الوقت ذاته من شأنها النهوض بالواقع (ينظر: هاشم، ٢٠٢٤: ٣٤)، الأمر الذي جعل الرواية أن تأخذ حيّزا من مساحة الأدب العربي في العصر الحديث. يُمثّل ظهور الرواية العربية حركة موازية للحراك النهضوي الذي دعا إليه روّاد النهضة الغربية، وأبرز الروايات التي تزامن ظهورها مع ظهور النشاط التنظيري لمشروع النهضة هي؛ رواية "الساق على الساق فيما هو الفارياق" لأحمد فارس الشدياق (١٨٨٧م)، ورواية "وي إذن لستُ بإفرنجي" للروائي اللبناني خليل الخوري (١٩٠٧م)، أما من بواكير الروايات السورية؛ هي رواية "غابة الحقّ" لفرنسيس فتح الله مرّاش (١٨٧٣م)، ومن أوائل الروايات المصرية التي كرّست سؤال النهضة هي رواية "زينب" لمحمّد حسين هيكل (١٩٥٦م)، ثمّ كتب محمّد المويلحي (١٩٣٠م) روايته "حديث عيسى بن هشام"، ثمّ ظهرت أوّل رواية عراقية، وهي "الرواية الإيقاظية" لسليمان فيضي (١٩٥١م)، وتلتها رواية "في سبيل الزواج" لمحمود أحمد السيّد (١٩٣٧م)، أما الرواية الفلسطينية؛ فقد ظهرت في الربع الأوّل من القرن العشرين، وتمثّلت برواية "الوارث" لخليل بيدس (١٩٤٩م).

تحرر المرأة في رواية "زينب"

يُعدّ تدخل الراوي في رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م) علامة فارقة بين أحداث الرواية واقحام الآراء على مستوى النصّ، أي السياق الداخلي، فهو يأخذ دوره في سرد الأحداث والتوصيف وطرح الأفكار، فضلا عن طرح الأسئلة، ولا شكّ أنّ هذا التدخل له فاعليّة نصّيّة ودلالة في السياق الخارجي، فهو شكل من أشكال تكريس الأيديولوجيا في الرواية، كما انّ هناك دلالة واضحة لأسماء الشخصيات في هذه الرواية، على سبيل المثال "الشيخ" و"السيّد" و"المالك" التي وظّفت في الرواية لها دلالاتها في السياق الخارجي، ومن خلال هذا التمييز تظهر السلطة والهيمنة على الطبقة المستضعَفة، ولاسيما ممارستهما على المرأة وأبناء الفلاحين الفقراء، فتتحوّل هذه السلطة إلى إداة للقمع والاضطهاد، كما في البيئة المصرية التي يظهر فيها اضطهاد المرأة والتقليل من شأنها وسلب حرّيّتها من جانب، ورقّ المستضعَفين واستغلالهم من جانب آخر، وهذه معادلة للطبقية التي كُرّست في الرواية، وهي إشارة إلى تضمين ابراز قيمة التحرر من خلال تكريس الجانب المظلم للمرأة والعمّال في رواية "زينب"يظهر تقييد المرأة واضطهادها في وضع حدود التعامل لها مع الرجل، ومصادرة رأيها في اختيار الزوج المناسب، ومنها اللقاء الذي حدث بين ابن المدينة "حامد" وبنت الريف "زينب"، "فانبرت مرّة واحدة مبتعدة عنه، ثم مالت برأسها نحوه وقالت: أختي تشوفنا وبعدين تروح تقول لأبويه"(هيكل، ٢٠١١: ٢٤)، وما تدلّ عليه هذه الإشارة في الرواية هي لم تكن زينب الحالمة بالحرّيّة مقيّدة بأفعالها؛ بل برفض أباها التعامل مع الشباب، ومصادرة الآباء لحرّيّة بناتهم هو سياق ثقافي مفروض عليهم، وهم جزء منه، وعلى الرغم من أنّها كانت تحبّ "إبراهيم" إلّا أنّ أبيها قد زوّجها من حسن، من خلال خطبة تقليدية حضرها مجموعة من الرجال ينعتهم الراوي مرّة بالوجهاء وأخرى بأصحاب الرأي ثمّ يذكر المأذون كان معهم، و"ها هو ذا الأب قد تصرف في يد ابنته برأيه وباعها مساومة، وبقي أن تجيز هي عمل شخص أعطته الطبيعة من السلطان أنه أبوها"(هيكل، ٢٠١١: ٧٧)، وإذا كان في حدث الرواية الأب (السلطان) ومَن أقنعه (الوجيه، وصاحب الرأي، والمأذون) فإنّ هذه النعوت لها دلالاتها في السياق، وهي تسلّط الأب على ابنته، وهيمنة هؤلاء على المرأة ومصادرة حقّها في الاختيار، وهذه إشارة إلى ظلم المرأة وسلب حرّيّتها، والأمر ذاته مع عزيزة التي "انقطعت عن ذلك كلّه، ولبست "حبرتها"(حبرة: تعني مُلاءة من الحرير كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن) وانقطعت بذلك عن مقابلة الأكثرين من معارفها. وابتدأت حوالي الرابعة عشرة تقرأ روايات كانت تقع تحت يدها. ومع ما كانت تعاني في ذلك من الصعوبة فإن قصص الحب حلو ومحبّب لنفس كل شاب وفتاة(ينظر: هيكل، ٢٠١١: ٢١)، ومما يُشير إلى رفض كتابة قصص الحبّ وقراءتها في السياق الخارجي، هو محاولات منعها من العامة من قبل المتشدّدين، ومن خلال استدعاء التاريخ والوقوف على الكتابات التي رفضت كتابة هذا النوع من الأدب فهي كثيرة، وهذا يدلّ على ظلم المرأة حتّى في اختيار موضوعات لقراءتها.تظهر الطبقية في الرواية بشكل واضح، ويُطلق على مالك الأرض سيّدا ويُهاب ويُحترم، بينما يُستغل الفقير الذي يعمل في أرض المالك ويُهان، كما في معاملة عائلة حامد للعاملين في أرضهم، ويمثّل الرقّ نتيجة للطبقيّة التي كانت تُمارس ضدّ المستضعَفين، فدلالة ذلك التمييز بين الأفراد في السياق هو الفارق الطبقي، وفي السياق الخارجي سلطته وهيمنته على المستضعَف والعامل، كما يُشير إلى ذلك الراوي بقوله: "لكنهم ما كانوا ليحسوا بذلك أو ليألموا له وقد تعودوه كما تعوده آباؤهم من قبلهم، تعودوه من يوم مولدهم، فانتقل إليهم بالوراثة وبالوسط. وتعودوا ذلك الرق الدائم ينحنون لسلطانه من غير شكوى ومن غير أن يدخل إلى نفوسهم قلقا"(هيكل، ٢٠١١: ١٨)، وهي إشارة إلى أبرز الظواهر سوءا، أن يرث جيل الأبناء رقّ واستضعاف آبائهم؛ لأنّها إحدى المحاولات لطمس الإنسانية وقيمها، واقرارها في السياق. فمن خلال تدخل الراوي وبثّ أفكار تتماهى مع الأيديولوجيا التي ضمّنها في أحداث الرواية على مستوى النصّ، وعدم محاولته لتذويب الفارق بين السيّد والمستضعَف، والمالك والعامل؛ فيمكن القول أنّ ثمّة علاقة تضمّنيّة في هذه الرواية.

مبدأ (الأمة الوطن) في رواية "حديث عيسى بن هشام"

جمعت رواية "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي (١٩٣٠م) بين الأسلوب السردي في المقامات والرؤية الجديدة للمواطنة وهُوية الفرد، وربّما إنّ الرواية قد استدعت النمط القديم المفرغ من القيم، لمحاورته ونقده في الدولة الجديدة، فقد تجسّدت فكرة "الأمة الوطن" من خلال اللقاء بين جيلين مختلفين مثّلهما "الباشا" الذي لم يشهد الدولة الجديدة وأنظمتها، و"عيسى بن هشام" الذي شهد تطوّر الحياة الجديدة وأبرزها الدولة بمؤسّساتها وقوانينها، وقد تغلّبت فكرة "الأمة الوطن" على فكرة "الأمة القوم"، فقد بُنيت الأحداث على فكرة "الأمة القوم أو الإسلام" على أنّها مفتاح للسرد، وذلك عندما ذهب عيسى بن هشام للمقابر للتدبّر واخذ العبرة منها، وبعد اللقاء بأحد الأموات، شبّه مصاحبته بمصاحبة موسى والخضر، مستشهدا ببعض الآيات التي تصف الفكرة ذاتها، وقد هيمنت هذه الفكرة على ثيمة من جانبين، الأوّل: ظهور ألفاظ في حديث الشخصيات لم يعرفها "الباشا" مثل: رئيس، أفندي، بوليس، قانون، جنحة، جناية، نظام، جاويش، قسم، شيخ الحارة، نيابة، دار المحافظة، محامٍ، الهيئة الاجتماعية، نائب، كارت، الأوتيل. وهذه الألفاظ تُشير بشكل أو بآخر إلى ملامح التغيير الذي نتج عنه التطوّر في مصر، التي غابت عن الجيل السابق الذي مثّله الباشا. والثاني: سياق الأحداث الذي يُشير إلى قوانين وأنظمة ومؤسّسات لم يسبق للباشا أن يتعرّف عليها، ومنها: "القسم"، و"المحكمة

الأهلية"(المويلحي، ٢٠١٣: ٣٧)، التي اعترض عليها الباشا وعدّها سيئة، لأنّه يعرف "المحكمة الشرعية" ويعتقد بها، وهذه إشارة أخرى تدعو للمقارنة بين المحكمة الشرعية التي ارتبطت بقيم متوارثة تدعو إلى فكرة "الأمة القوم أو الإسلام"، وبين المحكمة الأهلية التي تمثّل انموذجا لظهور قيم جديدة تدعو إلى الوطن الواحد، الذي تنصهر فيه تلك القيم القديمة، فيكون التعامل مع الفرد على أنّه مواطن ينتمي للدولة الجديدة واشتراطاتها، ومن خلال مواقف عديدة يتعرّف الباشا على النظام الجديد، فتبرز قيمة المواطنة بشكل واضح، كما في موقف الباشا مع المكاري، فالباشا تعامل مع المكاري بتعالٍ وهدّده بالقتل، لكن المكاري ردّ عليه مستهينا بقوله: "من أنت ومن غيرك، ونحن في زمن الحرّيّة لا فرق بين الصغير والكبير، ولا تفاوت بين المكاري وبين الأمير" وهذا تجسيد للقيمة الجديدة التي يحملها الفرد المصري، أي قيمة المواطنة.جاءت لفظة الوطن على لسان عيسى بن هشام في قوله: "بل يرتد الجاني بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسه" وسياق الحديث الذي تضمّن هذه اللفظة وهو يصف أنواع المحاكم المصرية، وتفاصيل حول آليات العمل بها وكيفية التعامل مع الفرد المصري أو الأجنبي، فهي تُشير إلى معنى الوطن والمواطنة في آن واحد، وفي مقابل هذا المعنى تُشير إحدى شخصيات الرواية "المحامي" إلى الجريمة بالعصور التي سبقت الدولة الحديثة ويصفها بالهمجية بقوله: "إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضي في وضع الشرائع والقوانين في هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يُقصد منه"(المويلحي، ٢٠١٣: ٤٢)، تظهر ملامح التطوّر التي يُعزز مبدأ "الأمة الوطن" من خلال الانفتاح على الآخر الغربي، أي: الأنا مقابل الآخر. ويبدو أنّ تذويب الفوارق القديمة والتطلع إلى التبادل بين الثقافات يمكن أن يتصف بها روح العصر، فالتعامل مع الآخر من خلال الانفتاح يُشير إليه عيسى بن هشام بقوله: "الجرائد هي أوراق تُطبع كلّ يوم أو كلّ أسبوع أو كلّ شهر تجمع وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة؛ ليطلع الناس على أحوال الناس، وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل"(المويلحي، ٢٠١٣: ٤٥)، وهذه إشارة واضحة لعملية التأثّر بالآخر ومحاورته محاورة فكرية لاخذ بعض القيم الجديدة منه، لا سيما المدنيّة التي تمثّل أبرز ملامح الثقافة الجديدة التي تسير على وفق سياقات المدينة/ الدولة.يُشير تتبّع مجمل الأحداث إلى فكرة الأمة الوطن الذي مثّله الجيل الجديد بشخصياته وتؤكّده شخصية الباشا، وهذا ما يظهر في قول عيسى بن هشام وهو يصف أهل مصر: "بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يفضي نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم". وهذا وصف يكرّس حضور هذه الفكرة من خلال تطوّر الدولة المصرية، فقد تعاطى الأفراد مع البيئة الجديدة بمؤسّساتها وقوانينها وأنظمتها، على أنّها نتيجة من نتائج النهضة العربية التي قام بها المصريون، وما الرواية إلّا تمثيل لتلك النهضة، وإستجابة لأسئلتها الكبرى.

قيمة التعلّم في الرواية "الإيقاظية"

ثمّة محاور متعدّدة تضمّنتها "الرواية الإيقاظية" لسليمان فيضي (١٩٥١م)، وكلّ محور من هذه المحاور يمثّل سؤالا من أسئلة النهضة العربية، وأبرز هذه المحاور: التعلّم، ونقد التقاليد، وتحرر المرأة، والدعوة للنهوض بمبدأ "الأمة الوطن"، وهذه القيم من بين القيم التي تُرسّخ مبادئ المواطنة وبناء هُوية الفرد القادم من أجيال لم تعهد نظام الدولة الجديدة، وهذا ما ظهر من خلال أحداث الرواية التي بُنيت على تصادم بين مَن يُمثّل العادات والتقاليد القديمة، ومَن يُمثّل القيم الجديدة التي تحمل روح العصر، ومن هنا تتعدّد التوجهات وتبرز القيم الجديدة التي تدعم فكرة الأمة الوطن تارة، وتدعو إليها تارة أخرى.تظهر قيمة التعليم في إقناع "خضر" لصديقه "باقل" وفي اشراك "الموقظ" و"يقظان" من جانب، ومن خلال النتائج التي ترتّبت على إقناع "خضر" لصديقه "باقل" من جانب آخر، فبعد أن حثّ الخطيب {المعلم} "على وجوب التعلّم ونشر المعارف والأدب بين الطبقات"(فيضي، ٢٠١٩: ٢٠)، سأله "خضر" عن سبب الوجوب، فأجابه الخطيب: لأنّ التعلّم أساس العيش بسعادة، لذا عزم "خضر" على التعلّم، وكذلك حاول إقناع صديقه بعدما كان لا يرغب بذلك، وهذا ما اكّده "خضر" لـ"يقظان" بقوله: تأكد بأنّي لا أتركه أبدا ولا يخفك، فإني سأثبت على عزمي وسأتوفق وأقنعه (فيضي، ٢٠١٩: ٣٨)، وبعدما نجح "خضر" في ترغيب "باقل" للتعلّم، هناك محاولات حثيثة من "خضر" و"الموقظ" في إقناع "أبي باقل" لكنّه والمقربين منه يعدّون الجهل حياتهم وحياة آبائهم، وهذا تمثيل لما هو شائع في السياق الثقافي، في مقابل مَن يعدّ العلم حياة، والفرق بينهما كبير، وهذا ما اكّدته نتائج إقناع "أبي باقل" في تغيير اسم ابنه إلى "سعيد" لدلالته في السياق ذاته، ثمّ إقناعه على اكمال دراسته، وبعد أن حصل "سعيد" على شهادته تخصّص في الطبّ (فيضي، ٢٠١٩: ٩٨)، وأصبح من الأطباء الأوائل في مدينته فتحقّقت سعادته، وعلى أثره شكر "أبو سعيد" "خضرا"، وندم "على حالته التي هو فيها وعمره الذي قضاه في الجهالة. ويلقي كل اللوم على أبيه الذي لم يعتنِ بتربيته وتعليمه"(فيضي، ٢٠١٩: ٩٩)، وما يبرّز قيمة التعليم قضية سجن "خضر" والحكم عليه بالإعدام؛ لكنّ "سعيدا" اخرجه من محنته في ضوء مكانته العلمية التي يتمتّع بها.تفشّت قضية اتباع التقاليد السائدة في المجتمع بشكل لافت للنظر لا سيما عند "أبي سعيد" وجيرانه وأصدقائه، وهذا ما قاله "أبو سعيد": لا نخالف الناس جميعهم ولا نترك عادة آبائنا (فيضي، ٢٠١٩: ٩٣)، لأنّ الابن يقلّد أباه ويقتدي به، وهذا التقليد هو مجاراة الناس فيما يفعلون، فالشتم عندهم من العادات، كما في قول "مشخوط": "هو ابني وأنا أسبه فماذا يعنيك ونحن هذه عاداتنا الأب يشتم الولد"(فيضي،

٢٠١٩: ٧١)، والرابط بين قيمة التعليم والتقليد هو نقد التقليد الأعمى، ويأتي الأخير بعد النهوض بواقع المجتمع الثقافي، الذي يرسّخه التعليم كقيمة أساسية من قيمه الجديدة. أما تحرر المرأة فإنّه يتركّز في احترام المرأة وجعلها تتعلّم بعدما كانت محرومة منه، فما ورد في قول "أبي سعيد": "إذاً دعني أشاور ـ أجلكم الله ـ أمه" (فيضي، ٢٠١٩: ٦٨)، وكلمة (أجلّكم الله) هو مصداق لتقليل من قيمة المرأة حتّى في ذكرها، وهذا ما كان سائدا في المجتمع، ولكن هناك اتجاه يحمل القيمة للمرأة مثّله "الموقظ" فيردّ على هذا التحقير بقوله: "أرجوك أن تعد عليّ هذه الكلمة"(نفسه: ٦٨) أي لا تكررها، وهو رفض للشائع وإزاحة قيمة سائدة وهي قيمة التحقير، لتحلّ قيمة جديدة محلّها وهو الاحترام، وفي الحوار الذي دار بين "سعيد" وأبيه حول صفات المرأة التي يرغب بالزواج منها؛ يشترط "سعيد" أن تكون متعلّمة، فيقول أبوه: "إنّي أسمع الناس لا يجوّزون تعليم المرأة"(نفسه: ٦٨) ويبدو أنّ تجهيلها ثقافة جارية على ألسُن الناس، لكنّ "سعيدا" يردّ بقوله: "ولهذا إنّي أنتقد بسبب ادعائهم الباطل فما لنا وما لهم"(نفسه: ٦٨) وهذه القيمة ترتبط أيضا بمجموع القيم التي تُشير إلى تذويب الفوارق بين الأفراد مهما كانت خلفياتهم، على أساس أنّ الجميع له الحقّ في ممارسة ما يمكن الإفادة من تلك القيم التي رسّختها فكرة " الأمة الوطن".ورد ما يجسّد هذه الفكرة في مواضع كثيرة، ومنها ما جاء في شكر "الرئيس" لـ"خضر" على غيرته الوطنية على أبناء جنسه(فيضي، ٢٠١٩: ٤٦)، وهذا تأكيد على إبعاد الفوارق والتعامل على أنّه جنس بشري، وفي نقد "الموقظ" لتربية أبي سعيد المنفور منها، يصفها "هي التي تزيد بانحطاط الأمة وتقوي وسائل التقهقر والدمار"(فيضي، ٢٠١٩: ٦٤)، ويظهر حرصه بالمجموعة وهو شعور بالمسؤولية من أجل الارتقاء بقيم الأمة، وكما يُبدي رغبته بالانتقال من شقاء الهمجية إلى سعادة المدنية، وما جاء في قول "الموقظ" يؤكّد تنوير بعض الناس بمبادئ الإنسانية، ويوضح كيفية الوصول للنهضة بكلام وجيز، فيقول: "حاشا ليس الناس كلهم كذلك فبينهم علماء وفضلاء وأدباء كرام ومهذبون ومتنورون، وأن كثيرا من عرف معنى الحياة وقام يرشد قومه ويسعى بتهذيب أبنائهم وكذا تكون النهضة تدريجيا"(فيضي، ٢٠١٩: ٩٤)، وما جاء في وصية "أبي سعيد" لابنه تأكيد على علاقة الفرد بوطنه، يقول فيها: ليكن اتصالكم بالوطن شديدا وارتباطكم به متينا وامتزاجكم به قويا وإنّ أبناء الوطن الواحد كأبناء العائلة الواحدة فهم متكافلون(فيضي، ٢٠١٩: ١٥٣)، وهذا بثّ للمبادئ والقيم التي ترفع من شأن الفرد في وطنه، وتُعزز روح المواطنة في داخله.

تحرر المرأة في رواية "في سبيل الزواج"

يعد التقابل الدلالي ميزة شكلية للرواية العراقية في مرحلتها الأولى، فقد أهتمت الرواية العراقية في قيم النهضة عبر عملية التقابل والمقارنة مع قيم النهضة الغربية، لأنّها ركّزت على القيم الإنسانية التي ينبغي للفرد التحلي بها، ولاسيما وإنّه ينتمي إلى دولة جديدة بحاجة إلى التركيز على تلك القيم على مستوى الفرد والجماعة، فلم تكن البنية اللغوية وسياقها الداخلي قادرة على اظهار التقابل الدلالي، إلّا بعد الاستعانة بالسياق الثقافي للنتاج الروائي في تلك الحقبة، لأنّ "الدلالة النسقية تربط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكون عنصرا ثقافيا أخذ بالتشكّل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا"(الخليل، د.ت: ١٧٢-١٧٣)، يحيل التفاعل على شكل تأثير وتأثر بين فرد ومحيطه، فالتفاعل ينبني على علاقة تبادلية، تشترط وجود أطراف متعددة، ذلك أنّ التفاعل لا يكون وفق بعد واحد خالص، وإنّما يوجب تعددية علائقية(ينظر: سبيلا، الهرموزي، ٢٠١٧: ١٤٦) ويظهر هذا التقابل الدلالي في رواية "في سبيل الزواج"، لمحمود أحمد السيد (١٩٣٧م)تدور أحداث رواية " في سبيل الزواج " في إحدى مدن الهند، ولا يعني أنّ الرواية موجهة إلى المجتمع الهندي، لكن السيرة الذاتية لمحمود أحمد السيّد تخبر أنّه سافر إلى الهند وتأثر بها، وقد وصف روايته " بأنّها رواية غرامية اجتماعية "(الطاهر، احمد، ١٩٧٨: ١٢) تحكي قصة حبّ بين فتاة اسمها (كستور) وشاب اسمه (جينارام)، وعلى أساس أهمية تحرير المرأة من قيود المجتمع سيكون التركيز على هذه القضية المهمة، فالروائي يقدم نقدا للنسق التقليدي في المجتمع العراقي، وهذا النسق الثقافي هو تقييد المرأة والحد من حريتها، وإذا كان التقابل الدلالي في حقل البلاغة يعني التقابل بين الضدين في البنية الخطابية، فإنّ التقابل الدلالي في حقل الدراسات الثقافية يتعدى سياق بنية الرواية ويجد العلاقة بينها وبين السياق خارج الرواية وهو السياق الثقافي ، لذلك ما نجده في الرواية هو محاولة الروائي في أنّ يضع نقد الظاهرة الاجتماعية البارزة وهي الهيمنة على المرأة في مقابل حرية المرأة عند الآخر الغربي الذي يُعلي من شأن المرأة ويمنحها كلّ حقوقها وحريتها، فالروائي يدعو إلى نبذ هذا النسق من خلال تركيزه على قضية تحرير المرأة، فهو يحاول أن ينقد هذه العادة التي عرفها المجتمع العراقي، التي تفرض على أنّ الأب هو الذي يختار شريك حياة ابنته، كما منع ابو كستور زواج ابنته من الشاب جينارام، بل حاول ابوها تزويجها لرئيس العصابة الملقب بطل الجبل، وتصرف ابيها يتطابق إلى حدّ ما مع اعتقاد الآباء في السياق الثقافي، وأعني هؤلاء الآباء الذين يقفون في وجه بناتهم لأنّ التقاليد تفرض عليهم ذلك، الذي دعا محمود احمد السيد للمقابلة بين قيم مجتمعه وقيم المجتمعات الغربية هو اطلاعه على حضارات العالم، منها الحضارة الهندية والحضارة العثمانية وكان يتقن لغتها(ينظر: الطاهر، احمد، ١٩٧٨: ٨) وكذلك كان مطلعا على النهضة الغربية واشار اليها في روايته " جلال خالد " حتى أنّه كان" مصورا لآمال وتطلعات أفراد جيل جديد ناشئ،

فتح عينيه على الحياة وجنود الاحتلال البريطاني يجتاحون أرض بلاده، مجسما الكثير من مظاهر التخلف التي تقعد بمجتمعه عن النهوض المطلوب"(الطاهر، احمد، ١٩٧٨: ١٠)، ويتدخل الراوي لوصف حال البنت الشرقية بقوله: "كم تحت سماء الشرق من بنت مظلومة مثلك يا كستور، وكم من عذراء بكر قبلك ماتت حتف انفها وذهبت ضحية أغراض وليها"(الطاهر، احمد، ١٩٧٨: ٧٦) والمقابلة التي يجريها الروائي بين المجتمع الشرقي والمجتمع الغربي المتقدم عليه كثيرا، فينطلق من نقد القيم الاجتماعية، بعد احتكاك الشرقي بالآخر الغربي حلال فرض هيمنته عليه، أي في ظل الاحتلال البريطاني على العراق، فالروائي بعد أن رأى القيم الغربية التي تنادي بالإصلاح والنهضة وتحرير المرأة والعدالة، فقد حاول أن يحاكي هذه القيم، وبدأ بنقد واقعه من أجل استنهاضه، مما ادى به إلى أن يُعلي من شأن العدالة الاجتماعية، وتمثّل ذلك في نهاية الرواية، أي عند تسليم اللص إلى العدالة، فالروائي يؤكد على أنّ هناك نسقا ثقافيا يتمثل بتقييد حرية المرأة، والتقابل الدلالي في هذه الرواية وقع بالمقابلة والمقارنة بين هذه القيمة في المجتمع العراقي والقيمة ذاتها عند الآخر، وهذا الأخير له حضور فاعل في مرحلة تأسيس الدولة العراقية، فعمل الروائي على تقديم النقد للذات إشارة إلى السياق الخارجي الذي تمثل في التراجع القيمي للمجتمع، لذلك فإنّ التقابل الدلالي كان واضحا في هذه الرواية من خلال نقد الذات الشرقية أمام قيم الآخر الغربي.

الخاتمة

تُعدّ الرواية العربية – التي كُتِبت في عصر النهضة العربية – إحدى الروافد الثقافيّة لدعم المشروع النهوض، الذي دعا إليه روّاد النهضة العربية، لأنّها كرّست معظم أسئلة النهضة، فعبّرت عنها سردا افهاميا، يُتيح للقارئ فهم القيمة الإنسانية بشكل عميق، فهي تختلف تماما عن القصور الشعري، فقيم الرواية التي تتمثّل بـ(مبدأ الأمة الوطن، ورفض الظلم، والحثّ على التعلّم، وتحرر المرأة، ومناهضة العنف الاجتماعي) هي ذاتها قيم النهضة العربية، التي كان لها صدًى على ألسن الروّاد، الأمر الذي جعل الرواية تتقدّم كثيرا على الشعر، وتحديدا في العصر الحديث

Conclusion

The Arabic novel – written during the Arab Renaissance – is considered one of the cultural tributaries supporting the renaissance project called for by the pioneers of the Arab Renaissance, because it dedicated most of the questions of the Renaissance, expressing them in an informative narrative that allows the reader to understand human value deeply. It is completely different from the shortcomings of poetry, as the values of the novel, which are represented by (the principle of the nation as homeland, the rejection of injustice, the encouragement of learning, the liberation of women, and the opposition to social violence), are the same values of the Arab Renaissance, which resonated on the tongues of the pioneers, which made the novel far surpass poetry, especially in the modern era.

المصادر والمراجع

١–ألبيريس: تاريخ الرواية الحديثة، تر: جورج سالم، منشورات بحر المتوسّط، ط٢، ١٩٨٢م، بيروت.

٢–بوعزة، محمد: تحليل النص السردي: تقنيات ومفاهيم، الدراسات العربية للعلوم ناشرون، د.ط، ٢٠١٠م، بيروت.

٣–الخليل، سمير: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، د.ت، بيروت– لبنان.

٤–سبيلا، محمد، الهرموزي، نوح: موسوعة المفاهيم الاساسية في العلوم الانسانية والفلسفة، ط١، ٢٠١٧.

٥–الطاهر، د علي جواد، احمد، د عبدالاله: الاعمال الكاملة لمحمود احمد السيد، وزارة الثقافة والفنون العراقية، ١٩٧٨، بغداد.

٦–فيضي، سليمان: الرواية الإيقاظية، دار قناديل للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٩م، بغداد.

٧–المويلحي، محمد: حديث عيسى بن هشام، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، ٢٠١٣م، القاهرة.

٨–هاشم، أحمد محمد: تمثلات البطل في الرواية العراقية، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠٢٤، البصرة.

٩–هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٩٧م، القاهرة.

١٠–هيكل، محمد حسين: زينب: مناظر وأخلاق ريفية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، ٢٠١١م، القاهرة.

Sources and references

1. Alberis: A History of the Modern Novel, trans. George Salem, Mediterranean Publications, 2nd ed., 1982, Beirut.

2. Bouazza, Mohamed: Narrative Text Analysis: Techniques and Concepts, Arab Studies for Science Publishers, n.d., 2010, Beirut.

3. Al-Khalil, Samir: A Guide to Cultural Studies and Cultural Criticism Terminology, Scientific Book House, n.d., Beirut, Lebanon.

4. Sabila, Mohamed, and Al-Harmouzi, Noah: Encyclopedia of Basic Concepts in the Humanities and Philosophy, 1st ed., 2017.
5- Al-Tahir, Dr. Ali Jawad, Ahmed, Dr. Abdul-Ilah: The Complete Works of Mahmoud Ahmed Al-Sayed, Iraqi Ministry of Culture and Arts, 1978, Baghdad.
6- Faydi, Suleiman: The Awakening Novel, Qanadil Publishing and Distribution House, 1st edition, 2019, Baghdad.
7- Al-Muwaylihi, Muhammad: The Hadith of Isa ibn Hisham, Hindawi Foundation for Education and Culture, n.d., 2013, Cairo.
8- Hashim, Ahmed Muhammad: Representations of the Hero in the Iraqi Novel, PhD dissertation, University of Basra, College of Arts, 2024, Basra.
9- Hilal, Muhammad Ghunaimi: Modern Literary Criticism, Nahdet Misr Publishing House, n.d., 1997, Cairo.
10- Haykal, Muhammad Husayn: Zaynab: Rural Scenes and Morals, Hindawi Foundation for Education and Culture, n.d., 2011, Cairo.